التكامل المعرفي بين اللسانيات وعلم الاجتماع

دراسة وصفية

د. أحمد الهادي رشراش*

الملخص :

تناولت هذه الدراسة إشكالية استقلالية اللسانيات من عدمها، حيث إن اللسانيات علم يسعى إلى الاستقلالية من خلال دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها، ولكنه في الوقت ذاته لا يستغني عن علوم أخرى ترتبط به، من أهمها علم الاجتماع؛ كون اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ في المجتمع، تؤثر فيه وتتأثر به، ويحاول الباحث من خلال هذه الدراسة إيضاح علاقة التكامل المعرفي بين اللسانيات وعلم الاجتماع، وأهم مظاهر التأثر والتأثير بين العلمين.

Search title

((Cognitive integration between linguistics and sociology))

Abstract

This study deals with the problem of the independence of linguistics or not. Linguistics is a science that strives for independence through the study of language in itself and for its own sake, but at the same time it does not dispense with other related sciences. In it and .influenced by it

In this study, the researcher tries to clarify the relationship between cognitive integration between linguistics and sociology and the most important aspects of influence and influence between the two scientists.

* أستاذ اللسانيات المشارك، قسم اللغة العربية – كلية اللغات – جامعة طرابلس / ليبيا Dr.rash_ah@yahoo.com

مقدمة:

المعرفة الإنسانية – على تعدّد أنواعها – هي وحدةٌ تكمّل بعضها بعضها بين العلوم الإنسانية، التي تُعنى بكل ما يتعلّق بالإنسان، من ناحية نمط حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وسلوكه، ولسانه؛ لذلك نجد تكاملاً وتأثراً وتأثيراً بين العلوم الإنسانية فيما بينها.

وتُعدُّ اللسانيات – وهي علمٌ يُعنى باللسان البشري – من أكثر العلوم ارتباطاً بعلم الاجتماع؛ ذلك أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية، تؤثر في المجتمع وتتأثر به؛ وهي وسيلة التواصل والتفاهم بين أفراد المجتمع؛ لذلك نجد تكاملاً معرفياً بين اللسانيات وعلم الاجتماع، حيث تأثّرَ كلٌّ منهما بالآخر، وأثر فيه.

1. تعريف اللسانيات وعلم الاجتماع:

1.1 تعريف اللسانيات:

اللسانيات مصطلح عربي وُضِعَ في مقابل المصطلح الأجنبي (Linguistics) ويُطلق على العلم الذي يدرس اللغة دراسة علمية، و"يركّز على اللغة نفسها مع إشارات عابرة – أحياناً – إلى قيم تاريخية وثقافية" ***(باي 1998)*** .

وقد عُرِف هذا العلم بهذه الصورة في مطلع القرن العشرين الذي "شاهد انبثاق الألسنية الوصفية علماً مجتمعيّاً يحتوي على مصطلحات ومفاهيم واضحة دقيقة" ***(زكريا 1983)***.

ويرجع الفضل في إرساء دعائم اللسانيات، ووضع أسسها ومبادئها إلى اللساني السويسري: ***فرديناند دي سوسير***، وذلك بانتشار كتاب باللغة الفرنسية بعنوان: (Cours de linguistique general) وهو محاضرات ***فرديناند دي سوسي،ر*** جمعها تلاميذه وعلى رأسهم ***شارل بالي*** في هذا الكتاب، ونسبوه إلى أستاذهم ***دي سوسير***، ووردت في هذا الكتاب أفكارٌ لغوية مهمة ***لدي سوسير***، أحدثت ثورة في دراسة اللغة، في العالم أجمع، لكنّ الاهتمام باللغة ودراستها لم يتوقّف عند اللغويين واللسانيين، "بل تعدّاهم ليشمل الفلاسفة، وعلماء السيكولوجيا، والسوسيولوجيا، والمنطق الرياضي" ***(زكريا 1983)***.

وإلى جانب جهود ***فرديناند دي سوسير*** في حقل اللسانيات، تطوّرت اللسانيات بفضل جهود ***إدوارد سابير***، ***وليونارد بلومفيلد***، ***ونعوم تشومسكي*** في أمريكا، ***وفيرث***، ***وجون لاينز***، في إنجلترا، ***وشارل بالي***، ***وميخائيل ريفاتير*** في فرنسا، ***ورومان جاكوبسون*** ***ونيكولا تروبتسكوي*** ***وجسبرسن*** ***وهيلمسلاف*** في أوروبا، وغيرهم.

2.1 تعريف علم الاجتماع:

يُعرّف علم الاجتماع بتعريفات عديدة، من بينها تعريف ***رينيه منيه،*** الذي عرّفه بأنّه:" الدراسة الوصفية المقارنة التفسيرية للمجتمعات الإنسانية، بحسب ما تسمح به مشاهدتها في الزمان والمكان" ***(مونيه 1949)،*** ويهتم هذا العلم بالنظم والظواهر الاجتماعية: السياسية والاقتصادية واللغوية وغيرها، ويحاول فهم السلوك الاجتماعي وتفسيره، ويدرس التفاعلات والعلاقات المتبادلة الإنسانية.

وقد شهد علم الاجتماع، مطلع القرن العشرين، تطوّرا ملحوظاً على يد رائد هذا العلم ***إميل دوركايم*** في فرنسا، فقد "استعاد الطموح لتأسيس علم مستقل يخص المجتمعات البشرية، هو السوسيولوجيا" ***(عبد الرحيم، 1981)***.

وإلى جانب الدور الذي قام به ***إميل دوركايم*** في نشأة علم الاجتماع، لا تُنْسَى جهود ***هربرت سبنسر*** في إنجلترا، و***فرديناند توينز*** و***ماكس فيبر*** في ألمانيا، و***تولكوت بارسونز*** و***ألفين جولدنر*** في الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرهم.

2. العلاقة بين اللغة والمجتمع:

هناك علاقة وطيدة بين اللغة والمجتمع، وقد أدرك العلماء دور اللغة في نشأة المجتمعات الإنسانية، وتطورها واستمرارها، كما أنّ اللغة هي أهم مدخل لدراسة الإنسان والمجتمع، ومع أنّ الإنسان يُولد مزوّداً بجهاز النطق وأعضائه، ولديه الاستعداد الفطري للقدرة على الكلام؛ فهو لا يستطيع النطق إلا إذا كان يعيش في مجتمع ما، فالمجتمع للغة كالتربة للحبة، فمع توافر جرثومة الحياة في الحبة، لا تنبت إلا في التربة، وكذلك اللغة، لا تنمو إلا في مجتمع إنساني، ومع أنّ الإنسان مستعد بفطرته للكلام، فلا يظهر أي أثر لذلك الاستعداد إلا في المجتمع الإنساني ***(أنيس 1970)***.

1.2 التواصل الاجتماعي من أهم وظائف اللغة:

هناك وظائف متعدّدة للغة الإنسانية، يأتي في مقدمتها: التعبير عن الفكر، والتواصل بين أفراد المجتمع، وذلك جعلها تحتلّ مكانة بارزة في حياة الإنسان الفكرية، وفي نشاطاته الإنسانية والاجتماعية، فهي من أهم خصائص الإنسان وميزاته التي تميّزه من جميع المخلوقات؛ لذا اهتم بها العلماء قديماً وحديثاً، بتنوّع معارفهم وثقافاتهم، واختلاف مشاربهم واختصاصاتهم، فبحث في قضاياها اللغويون، والفلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، وغيرهم ***(زكريا 1983)***.

2.2 اللغة والمجتمع في نظر اللسانيين:

أكّد كثير من اللسانيين أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية، و"هي مجموعة من الإشارات والأصوات والرموز اللفظية التي تدل على معانٍ محدّدة تعبّر عن أفكار الإنسان، وتأثره بالبيئة والوسط المحيطين به، واستجابته لهذا التأثر" ***(عبد الرحيم 1981)*** كما أنها "وعاء التجارب، ودليل النشاط الإنساني، ومظهر السلوك اليومي الذي تقوم به الجماعة" ***(حسان 1980)*** وهي –أيضاً – من أهم روابط المجتمع، يقول اللغوي ***فندريس***: "فما الأداة التي يمكن أن تكون أكثر كفاءة من اللغة في تأكيد خصائص الجماعة؟ إذ هي في مرونتها ويسرها وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعاني تصلح لاستعمالات متشعبة، وتقف موقف الرابطة التي توحّد أعضاء الجماعة؛ فتكون العلامة التي بها يعرفون، والنسب الذي إليه ينتسبون" ***(فندريس 1950)***.

والمجتمعات تتميّز بعضها من بعض بلغاتها، فاللغة "أقرب الأدلة وأقواها عند استقصاء الملامح الخاصة لأي مجتمع" ***(حسان 1980)*** .

3. تأثرّ فردينان دي سوسير بإميل دور كايم:

يُعدّ ***إميل دوركايم*** رائدا لعلم الاجتماع الحديث، وقد كان يميل إلى الوضعية وينبذ النزعة الفردية، وينادي بأنّ الظواهر الاجتماعية ظواهر من نوع خاص، ومن أشهر مؤلفاته (تقسيم العمل الاجتماعي)، وكان ***دوركايم*** ينادي باستقلالية اللسان (Langue)عن الكلام (Parole) وعن اللغة بمعناها العام (Language) ***(السعران د. ت)*** .

ولا غرابة في أن يتأثر رائد اللسانيات الحديثة ***فردينان دي سوسير*** برائد علم الاجتماع الحديث ***إميل دور كايم؛*** فهو معاصرٌ له وصديقه؛ لذلك كان تأثر ***دي سوسير بدور كايم*** واضحاً جلياً في كثير من أفكاره، فقد صرّح ***دي سوسير*** بأنّ: "الكلام البشري إنما هو ظاهرة اجتماعية" ***(سوسير 1985)***، وتساءل بعد ذلك قائلاً: "ولكن هل ينبغي تبعاً لذلك أن ندمجها في صلب علم الاجتماع؟ ثم ما هي الصلات الموجودة بين الألسنية وعلم النفس الاجتماعي؟ فكل ما في اللغة في نهاية الأمر نفسي. وتدخل في ذلك مظاهرها المادية والميكانيكية مثل تغيّر الأصوات. وإذا كانت الألسنية توفّر لعلم النفس الاجتماعي معطيات على هذا القدر من القيمة، أفليست ملتحمة به التحاماً عضوياً؟" ***(السعران د.ت)***.

وقد ذهب ***فردينان دي سوسير*** إلى "أنّ اللغة مؤسسة اجتماعية"***(سوسير 1985)***.واقترح "أن نتصوّر علماً يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسماً من علم النفس الاجتماعي" ***(سوسير***

1985). بذا يتضح جلياً تأثّر ***دي سوسير*** رائد اللسانيات ***بإميل دوركايم*** رائد علم الاجتماع، وانعكاس ذلك على تأثر اللسانيات بعلم الاجتماع في قضايا متعدّدة.

وكذلك سار تلاميذ ***دي سوسير*** مثل: ***مييه وجرامون*** على نهج أستاذهم في النظرة الاجتماعية للغة، وفي التأثر بعلم الاجتماع عامةً، و***إميل بدوركايم*** بشكل خاص ***(السعران دت)***.

4- اللسانيات الاجتماعية أو علم الاجتماع اللغوي:

لما كان هناك ارتباطٌ شديدٌ بين اللغة والفكر، فإن اللغة تُعد الركيزة الأولى لدراسة عمل الإنسان وتفكيره، وقد اهتم علماء الاجتماع في العصر الحديث باللغة، وقاموا بدراستها "على أنها نسق اجتماعي يرتبط ارتباطاً عضوياً ببقية الأنساق الأخرى داخل البنية الاجتماعية، ويكون جزءاً لا يمكن فصله، أو الاستغناء عنه، من النسق الكلي العام، الذي نطلق عليه لفظ المجتمع" ***(علوان 1995)***.

اهتم علماء الاجتماع بقضايا اللغة، على نحو ما نجد عند عالم الاجتماع الأمريكي ***لابوف*** في اهتمامه بحالات التغيير في مستويات علم الأصوات والنحو والدلالة، ووصل اهتمام بعضهم باللغة إلى تأليف الكتب التي تربط بين اللغة والمجتمع، نحو كتاب : (سوسيولوجيا اللغة 1993م) للكاتب ***بيار أشار (أشار 1996)***.

وتتمثل دراسة علم الاجتماع للغة في أوجه عديدة، يمكن إيجازها فيما يلي ***(أشار 1996)***:

1- اللغة ظاهرة اجتماعية، ومن ثم فهي حقيقة اجتماعية، تصنعها طبيعة الاجتماع لا الأفراد، ومن هنا قرّر ***إميل دوركايم*** أنها (نتاج العقل الجمعي).
2- اللغة جزء من نسق اجتماعي، ولا يمكن فهمها إلا في حدود وظائفها في المحافظة على ذلك النسق.
3- تمتاز اللغة بصفة العمومية، فهي عامة بين كل أفراد المجتمع، وهي من صفات الحقائق الاجتماعية.
4- تمتلك اللغة – شأنها في ذلك شأن جميع الحقائق الاجتماعية– خاصية الانتقال، فهي تنتقل من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل.
5- تتصف اللغة – كغيرها من الحقائق الاجتماعية– بصفة السيطرة والقهر، فالأفراد يجبرون على الخضوع لها.
6- اللغة فوق قدرة الفرد، فلا يستطيع فرد أن يدّعي القدرة على ابتكارها أو اختراعها.

ومن أهم ما يربط علم الاجتماع باللسانيات، هو اهتمامه بمختلف الظواهر الاجتماعية، ومن بينها اللغة، لذلك فهما يلتقيان في علم جديد هو: (علم الاجتماع اللغوي) أو (اللسانيات الاجتماعية)

Sociolinguisticوهو عند اللسانيين فرع من اللسانيات التطبيقية ***(الراجحي 1995)*** فقد أفضى اهتمام علماء الاجتماع باللغة، وكذلك اهتمام اللسانيين بوظائف اللغة، ولاسيما وظيفتها الاجتماعية، إلى ظهور هذا العلم؛ وهو علم يدرس اللغة "من حيث هي كائن اجتماعي في تفاعل وتأثر مستمر بالمعطيات الاجتماعية القائمة " ***(لطفي 1976)***.

ويعنى علم الاجتماع اللغوي أو اللسانيات الاجتماعية بقضايا عديدة تتعلّق باللغة، أبرزها ***(السيد 1995)***:

- التطور اللغوي والاجتماعي عند الطفل.
- اللغة واللهجات الاجتماعية.
- صراع اللغات.
- الاقتراض والامتزاج اللغوي.
- الكلام والنشاط الاجتماعي.
- السلوك غير اللغوي.
- اللغة والتباين الاجتماعي.
- الفروق اللغوية بين الذكور والإناث.
- مراحل نمو لغة الطفل.
- مستويات الاستعمال اللغوي .

والفرق بين اللسانيات العامة واللسانيات الاجتماعية، هو أنّ اللسانيات العامة "تعزل النطق الإنساني في أجزاء أو قطع، وفق معايير معينة، من أجل دراستها دراسة موضوعية" ***(الراجحي 1995)*** في حين أن اللسانيات الاجتماعية "تدرس اللغة باعتبارها تتحقق في مجتمع" ***(الراجحي 1995)***.

5- الربط بين اللغة والمجتمع في التراث العربي:

تجدر الإشارة هنا إلى أن علماء العربية تنبّهوا إلى العلاقة بين اللغة والمجتمع، وإدراك الوظيفة الاجتماعية للغة، منذ آلاف السنين، فقد سبقوا عصرهم في ذلك، فالعلامة العربي ***عبد الرحمن ابن خلدون*** قد سبق ***إميل دور كايم*** في الاهتمام باللغة، كما سبقه في وضع علم الاجتماع، عندما تحدّث في مقدمته عن (العمران البشري)، وأشار إلى ضرورة الاجتماع البشري، فقد ذكر ***ابن خلدون*** "أن اللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة.. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأنّ الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفة، ثمّ تتكرّر

فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي: صفة راسخة" ***(ابن خلدون 2003)*** ثمّ يستطرد ***ابن خلدون:*** في توضيح كيفية اكتساب اللغة في المجتمع قائلاً: "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيه، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم .. هكذا تصيّرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل"***(ابن خلدون 2003)***.

واللغوي **أبو الفتح عثمان بن جني** عرّف اللغة بأنها: "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" ***(ابن جني 1952)***، وما يلفت الانتباه في هذا التعريف، في هذا المقام، هو استعماله لكلمة (قوم) التي تعني المجتمع "وبخاصة أن لفظة المجتمع لم تكن مستعملة في هذا المعنى الذي نعنيه الآن، وإنما كان العرب يستعملون القوم للدلالة على المجتمع كما نفهمه في العصر الحديث" ***(الراجي 1993)***.

ورغم أن الدراسات اللغوية في التراث الإنساني كانت معيارية؛ تركّز على وضع القواعد، والبحث عن مواطن الخطأ والصواب، فإنّ علماء العربية المتقدمين سبقوا عصرهم في التنبه إلى العلاقة بين اللغة والمجتمع.

الخاتمة

إذا كانت الدراسات اللغوية في القديم تركز على اللغة، وفقاً للمنهج المعياري الذي يبحث عن السلامة اللغوية، وتربط اللغة بالعقل وفقاً للمنطق الأرسطي؛ فإنّ الاهتمام باللغة في العصر الحديث ركّز على وظيفتها الاجتماعية، وربطها بمستعمليها.

ويمكن تلخيص أهم نتائج البحث فيما يلي:

1- اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ في المجتمع، تتأثر به، وتؤثر فيه .

2- أثّر علم الاجتماع في اللسانيات بشكل ملحوظ من خلال اهتمام علماء الاجتماع باللغة، واهتمام اللسانيين بالوظيفة الاجتماعية اللغة.

3- تأثر رائد اللسانيات الحديثة ***فرديناند دي سوسير*** برائد عالم الاجتماع الحديث ***إميل دوركايم***، وانعكس ذلك على اللسانيات وعلم الاجتماع.

4- بلغ اهتمام علماء الاجتماع باللغة، واهتمام اللسانيين بالمجتمع في دراسة اللغة، إلى حد نشوء علم حديث يقع بين العلمين هو (علم الاجتماع اللغوي)، أو (اللسانيات الاجتماعية).

5- مع أن دراسة اللغة من زاوية اجتماعية من خصائص اللسانيات الحديثة، فإننا لا نعدم وجود بوادر لذلك في التراث العربي، على نحو ما رأينا عند ابن خلدون وابن جني.

المصادر والمراجع

1- ***ابن جني، أبو الفتح عثمان (1952):*** الخصائص، تحقيق: محمد النجار، دار الكتب القاهرة، 33/1.

2- ***ابن خلدون، عبد الرحمن 2003:*** مقدمة ابن خلدون، ط(8)، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ص 477.

3- ***أشار، بيار 1996:*** سيوسيولوجيا اللغة، تعريب: عبد الوهاب تزو، ط(1) منشورات عويدات، بيروت- لبنان، ص ص9 – 11 – 12.

4- ***أنيس، إبراهيم 1970:*** اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، القاهرة– مصر، ص ص 29 – 30 – 54.

5- ***باي، ماريو 1998:*** أسس علم اللغة، ترجمة: د.أحمد مختار عمر، ط(8) عالم الكتاب، القاهرة– مصر، ص35.

6- ***حسان، تمام 1980:*** اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، ص 7

7- ***دي سوسير، فردينان 1985:*** دروس في الألسنية العامة، تعريب: القرمادي وآخرين، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ص ص 25، 37.

8- ***الراجحي، عبده 1995:*** علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار المعرفة الجمعية، ص ص 17، 24.

9- ***الراجحي، عبده 1993:*** فقه اللغة في الكتب العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص71.

10- ***زكريا، ميشال 1983:*** الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ط(2) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ص ص 11،19.

11- ***السيد، صبري 1995:*** علم اللغة الاجتماعي مفهومه وقضاياه، دار المعرفة الاجتماعية، الإسكندرية، ص ص 26 ، 254.

12- ***عبد الرحيم، عبد المجيد 1981:*** تمهيد في علم الاجتماع، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ص 5، 6، 12

13- ***علوان، محمد السيد 1995:*** المجتمع وقضايا اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية– مصر، ص 9.

14- *فندريس 1950:* اللغة، ترجمة: الدواخلي والقصاص، القاهرة، ص7.

15- ***لطفي، مصطفى 1976:*** اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، ط(1)، معهد الإنماء العربي، بيروت– لبنان ، ص 7.

16- ***مونييه، رينيه 1949:*** المدخل في علم الاجتماع، ترجمة: السيد محمد بدوي، ص4.